

صورة المرأة الشرقية في الكتابات الغربية المستشرقة زيغريدهونكه أنموذجا

The Image of Eastern Woman in Western Orientalist Writings: A Model by

SigfriedHunkhe.

خليل بن ناصر*

جامعة مولود معمري تيزي وزو

Khalil.bennesser@ummto.dz

تاريخ القبول: 2025-05-22

تاريخ الإرسال: 2025-01-16

ملخص:

تتجلى أهمية البحث في الوقوف عند قضية تعدّد من أهم القضايا التي خاض فيها أغلب المستشرقين في أثناء تأريخهم للحضارة العربية الإسلامية، وهي قضية المرأة ومكانتها داخل المجتمع العربي و متغيّرات هذه المكانة وانعكاساتها على بقية الشعوب الأخرى، والتعرف على نظرة الآخر للمرأة الشرقية من خلال الخطاب الاستشراقي الذي أخذ أبعادا مختلفة تأرجحت بين الطعن في مكانتها وهتك حجاب الستر عنها وبين إنصافها والدفاع عنها من البعض الآخر. فكان الهدف من هذا البحث هو التماس مكانتها الحقيقية لدى المستشرقة الألمانية هونكه التي بذلت جهودا مضيئة في محاولة تغيير نظرة المجتمع الغربي للمرأة العربية . كما بيّنت أيضا فضل الحضارة الشرقية على الحضارة الغربية، أما الإشكالية التي وقفنا عندها لمعالجة هذا الموضوع هي ما هي الصورة التي رسمها الخطاب الاستشراقي للمرأة الشرقية في الكتابات الغربية؟ وهل وُفقت هونكه في نقل الصورة الحقيقية للمرأة الشرقية بنظرة أكثر علمية وموضوعية؟

كلمات مفتاحية: مستشرقين؛ خطاب استشراقي؛ حضارة شرقية؛ حضارة غربية.

Abstract:

The importance of the research is manifested in addressing an issue considered one of the most significant topics that most Orientalists engaged with while documenting the history of Arab Islamic civilization, which is the issue of women and their status

*-المؤلف المراسل.

within Arab society, the changes in this status, and its reflections on other peoples. It also involves understanding the perspective of the "other" towards Eastern women through Orientalist discourse, which has taken on various dimensions oscillating between denigrating their status and violating their veil of modesty, and on the other hand, the fairness and defense offered by some.

The aim of this research was to seek the true status of women as portrayed by the German Orientalist Hunke, who made strenuous efforts to change the Western perception of Arab women. It also highlighted the merits of Eastern civilization over Western civilization. The central issue we addressed in this topic was: What image did Orientalist discourse paint of Eastern women in Western writings? And did Hunke succeed in conveying the true image of Eastern women with a more scientific and objective perspective?

Keywords: Orientalists; Orientalist discourse; Eastern civilization; Western civilization.

مقدمة:

لقد كان للاستشراق دورا كبيرا في تغيير صورة العالم الشرقي الذي تعرض له بجميع مكوناته وعناصره وفي شتى مجالاته وقضياه، كما كان للعنصر النسوي دورا بارزا في هذا المجال بعدما حاولت المراة الغربية السفر إلى البلدان الشرقية والتعرف عن ثقافتها التي سحرتها بجمالها، ولعل من أبرز هؤلاء المستشرقات الألمانية زيفريد هونكه، صديقة العرب التي سخرت جهودها في سبيل الدفاع عن قضايا العرب من منطلق موضوعي بحث، فتعرضت للعديد من القضايا ومن بينها قضية المراة في الإسلام الذي أعاد رسم الصورة المثالية لها عكس ما روجت له بعض الدراسات الأخرى.

تكمن إذن أهمية هذه الدراسة في البحث في حقيقة هذه القضية ومتغيراتها عبر العصور وانعكاساتها على بقية الشعوب الأخرى، والأهم هو التعرف على نظرة الآخر للمراة الشرقية ومكانتها داخل المجتمع. أما الإشكالية التي نطرحها لمعالجة هذا الموضوع هي ما هي الصورة التي رسمها الخطاب الاستشراقي للمراة الشرقية في الكتابات الغربية؟ وهل وفقت هونكه في نقل الصورة الحقيقية للمراة الشرقية بنظرة أكثر علمية وموضوعية؟

1- هونكه وسحر الثقافة الشرقية

أ/ نبذة مختصرة عن المستشرقة زيجريدهونكه (1913-1999)

زيجريدهونكه هي مستشرقة ألمانية أحبت العرب ووهبت وقتها كله في سبيل الذود عنهم والدفاع عن قضاياهم، كما اشتهرت ب صداقتها لهم والتعمق في دراسة آدابهم والاطلاع على آثارهم ومآثرهم وقد "ولدت في 26 أبريل (نيسان) عام 1913 بمدينة كيل بألمانيا... وهي كاتبة تُرجمت كتبها إلى لغات كثيرة، ومن بينها كتاب شمس الله تسطع على الغرب الذي صدرت طبعته الأولى عام 1960، سفر قيم يشيد بالفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، ولقد بيعت منه أكثر من مليون نسخة"¹ وقد أحدث كتابها هذا "حدثا كبيرا في ألمانيا وأوروبا، علقت عليه مئات الصحف والمجلات، بدليل أن نقاد أوروبا لم يهتموا بشيء في ذلك العام، اهتمامهم بهذا الكتاب، فهاجم عشرات منهم المؤلفة والكتاب معا، واتهموها بالتعصب للعرب والتحيز لهم."² بسبب دفاعها عن العرب وقضاياهم العادلة.

وقد كتبت المؤلفة بعد صدور هذا الكتاب عام 1960 في مقدمته قائلة: "من المحتمل أن يرتبط مصيرنا قريبا بصورة وثيقة بمصير العالم العربي الذي قام ذات مرة من قبل بتغيير معالم ديانا تغييرا حاسما، ثم أليس من الواجب علينا أن نتساءل اليوم عن الأمور التي تربطنا متجاوزين تلك التي تفصل بعضنا عن البعض الآخر؟"³ بذلت الباحثة جهدا عظيما في تعريف الثقافة الأوروبية عموما والألمانية على وجه الخصوص بفضل الثقافة الشرقية على الثقافة الغربية من خلال العديد من مؤلفاتها نذكر على سبيل المثال بعض أعمالها المترجمة، ككتاب " الله ليس كذلك" ترجمة غريب محمد غريب، وكتاب " الإبل على بلاط قيصر" ترجمة حسام الشبيبي.

¹ زيجريدهونكه، الله ليس كذلك، تر: غريب محمد غريب، دار الشروق، القاهرة-مصر، ط1، (1416هـ-1995م)، ص 108

² زيجريدهونكه، شمس العرب تسطع على الغرب- أثر الحضارة العربية في أوروبا، تر: فاروق بيضون وآخرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط8، (1413هـ-1993م)، ص 7.8

³ زيجريدهونكه، الإبل على بلاط قيصر، تر: حسام الشبيبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، (1421هـ-2001م)، ص 9

كما " شاركت الأستاذ مصطفى ماهر وآخرين من كُتّاب ألمانيا والعالم العربي بمقال واسع أسمته أنهار من الشرق تسقي حقول الثقافة الألمانية 1974م"، كان والدها هينريش هونكه صاحب مكتبة لبيع الكتب وربما هذا أحد أهم الدوافع التي أدت بها لتشرب الثقافة الشرقية والتعلق بها، "توفيت في مدينة هامبورج Hamburg في 15/06/1999"⁴ و"يحسب لهذه الكاتبة صداقتها الحقيقية للعرب من خلال شحذ همم معارفها من الألمان ومن غيرهم لمناصرة قضايا العرب العادلة من خلال قلمها"⁵ وكوّنت جهدها كلّ في سبيل تحقيق هذا الهدف رغم كل الصعوبات التي واجهتها خاصة من المجتمع.

قبل الحديث عن موقف هونكه من المرأة الشرقية التي دحضت من خلاله كل الأقوال الأخرى التي حاولت تشويه صورتها عبر التاريخ، كان لا بد من الوقوف عند بعض المحطات التاريخية التي نستعرض من خلالها العلاقة التي تربط ألمانيا بالعالم الشرقي عموما والإسلامي العربي تحديدا، خاصة ونحن نعلم أن ألمانيا لم تكن لها دوافع وأهداف مثل تلك التي كانت لدى الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية، وهذا سبب من الأسباب التي جعلت إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق إلى عدم الحديث عن الاستشراق الألماني، لأنه لا يتماشى والسياسة الكولونيالية التي وجدت في النموذجين السابقين. إذن ما هي البدايات الأولى للعلاقة بين ألمانيا والحضارة الشرقية وانعكاساته على الثقافتين الغربية والشرقية؟.

ب/ جسور التواصل بين ألمانيا والعالم الشرقي

يتفق أغلب الباحثين على أن الروابط بين العرب والألمان تعود إلى وقت بعيد ولم يتم تحديد ذلك الزمن بدقة، إلا أنه من المؤكد أن معالم تلك الرابطة قد بدأت في فترة الحروب الصليبية التي كانت بمثابة المحرك الرئيس في علاقات الغرب المسيحي بالعالم العربي، فكان "من الطبيعي أن ينصرف اهتمام الألمان إلى دراسة اللغات الشرقية بعد أن بدأت هذه الدراسات تحظى باهتمام العلماء في فرنسا وإنجلترا، وكانت علاقات ألمانيا مع

⁴ زبغريد هونكه، العقيدة والعلم- وحدة الدين الأوروبي وعلم الطبيعة، تر: محمد أبو حطب خالد، المجلس

الأعلى للثقافة، القاهرة- مصر، ط1، 2007، ص 8

⁵ المرجع نفسه، ص 21

الدولة العثمانية قوية بسبب الروابط والمصالح السياسية والاقتصادية⁶ فألمانيا لم تفكر في احتلال دول العالم الإسلامي مثلما فكرت فيه بقية الدول الأخرى، "والحق أن ألمانيا بالذات لم تشارك في حملة الكراهية الدينية المنظمة ولا في الحركة الاستعمارية بل إن العرب والألمان كانوا على مر القرون شهوداً على لحظات مصيرية حقيقية ربطت صداقتهم معا"⁷، وكل هذا انعكس بشكل إيجابي على الدراسات الألمانية التي اتسمت معظمها بالموضوعية والأمانة العلمية في معظم القضايا التي شغلت الفكر الاستشراقي الغربي في أثناء تعامله مع التراث الشرقي، فنبغ باحثون وباحثات منصفات إلى حد بعيد مع هذا التراث وكتاب هونكه الذي لقي ترحيباً واسعاً في القطر العربي الإسلامي يعد بمثابة حجة قوية، وشهادة من الباحثة على عراقية تلك العلاقات وفضلها وهو ما عبرت عنه شخصياً في مقدمة كتابها حين تقول: "لم يكن، من قبيل المصادفة بته أن أكتب أنا السيدة الألمانية هذا الكتاب. فالعرب والألمان لا تربطهم فقط أيام دولتهم القوية، التي انقسمت الآن، والتي بدأت صعودها من جديد بقوة وحيوية وعزم، إنما هي رابطة قوية من الفكر والثقافة قد وثقت العرى بينهما، امتدت جذورها في أعماق التاريخ، واستمرت على مر القرون ولا زالت آثارها حتى اليوم"⁸ هذه الصورة الحسنة التي رسمتها الباحثة عن الحضارة العربية هي التي سنرى آثارها فيما بعد في هذا الكتاب، لكن سنحاول التركيز على موقف المستشرق من قضية المرأة الشرقية التي ركز عليها أغلب المستشرقين، الذين حاولوا قدر المستطاع الطعن فيها وتشويهها قصد الوصول لغايات وأهداف محددة .

⁶ محمد فاروق النبهان، الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية، إيسيسكو، (د.ط.)، (1433هـ-2012م)، ص 30

⁷ زيجريدهونكه، الإبل على بلاط قيصر، تر: حسام الشيعي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1421هـ-2001م، ص 10

⁸ زيجريدهونكه، شمس العرب تسطع على الغرب- أثر الحضارة العربية في أوروبا، تر: فاروق بيضون وآخرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط8، (1413هـ-1993م)، ص 9

2/ صورة المراة الشرقية في مراة المراة الغربية

أ/ عصر ما قبل الإسلام

قبل الحديث عن موقف المستشرقة هونكه من المراة العربية في كتابها هذا الذي انطلقت فيه ابتداء من العصر الأندلسي، كان لا بد لنا من العودة قليلا إلى الورا والتماس مكانتها في العصور الأولى، ففي عصر ما قبل الإسلام كان المجتمع القبلي آنذاك محكوم بعبادات وأعراف قوامها السفه والحمية العصبية، فكان إلى جانب انتشار صفات الشجاعة والجد والكرم وغيرها من الصفات الحميدة انتشرت في مقابل ذلك صفة وأد البنات، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها وقد أقرها القرآن الكريم قال الله تعالى في سورة التكوير ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۙ﴾⁹، وفي موضع آخر قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾¹⁰ وهي كلها عادات سيئة أبطلها الإسلام بل وجاء بأحكام وقوانين جديدة لم تحظ بها المراة من قبل، هذا ما صرحت به المستشرقة أن ماري شميل بقولها إن "وضع المراة في القرآن أفضل بكثير بما كانت عليه قبل الإسلام، وأصبحت تتمكن من نصيبها المكتسب بسبب الزواج أو الميراث ولها أن تنصرف فيه، كما مكّنها الإسلام من أن ترث، وهو ما كان غير ممكن من قبل"¹¹، لأنّ في ذلك العصر كان الرجل هو السيد والمراة هي المملوكة فهي خاضعة لأحكامه وقوانينه.

ب/ عصر صدر الإسلام

جاء الإسلام وجاء معه القرآن فأعاد للمراة مكانتها الحقيقية وخصّصها في مواضع كثيرة منه بالاحترام والإجلال، و"ستجد تقريبا في كل السور المبكرة النزول في القرآن حديثا عن الإناث، فمن تلميحات عن امراة تحمل بطفل، تضع مولودا، امراة فقدت طفلها الوحيد، أو استغاثة مؤثرة من وليدة من وأد أبويها غير الراضين عن ميلادها. كان هذا الحضور القوي للإناث مثيرا للانتباه في مكّة ذات المجتمع الشديد الذكورية، وقد يفسر

⁹(التكوير: 8)

¹⁰(النحل: 58، 59)

¹¹ أنا ماري شميل، روي أنثى، تر: ليس فايد، الكتب خان للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط1، 2016،

ذلك لماذا كانت النساء من أول من استجاب لرسالة القرآن¹²، هذا بالإضافة إلى نزول سورة بأكملها سميت بسورة النساء تفصّل في جميع الحقوق والواجبات التي تقوم بها المرأة اتجاه الرجل في مقابل ذلك فرض على الرجل العناية بها وهي صغيرة، وإسداء حقّها وهي زوجة، وأوجب طاعتها وبرّها وهي في خريف عمرها، لأنّ الجنّة تحت أقدامها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبّاقاً في هذا المضمار في تعاملاته مع أزواجه وبناته، فكان أسوة حسنة يقتدي بها كل مسلم واستمرت الحال على هذا النسق طيلة العصر الإسلامي والخلافة الأموية ارتفعت مكانتها أكثر كما أشارت إلى ذلك المستشرقة هونكة " فكانت السيدة تكمل دراستها على يد كبار العلماء، ثم تنال منهم تصريحاً لتدرس هي بنفسها ما تعلمته، فتصبح الأستاذة الشيخة. كما لمعت من بينهن أدبيات وشاعرات، والناس لا ترى في ذلك غضاضة أو خروجاً على التقاليد¹³ والتاريخ الإسلامي يشهد على ذلك فقد كانت عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين راوية لأكثر الأحاديث النبوية، والسيدة سكينه بنت الحسين ناقدة للشعر والشعراء، ورابعة العدوية شاعرة وغيرهن كثير عكس ما روجّ له الغرب في بحوثهم من انتهاك الإسلام لحقوق المرأة والسيطرة عليها.

ج/ العصر الأندلسي

ما أن توطد الحكم الإسلامي في بلاد الأندلس وتوفرت كل الأجواء الملائمة التي فتحت المجال أكبر للمرأة من أجل المشاركة في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية، حتى أصبح التنافس على أشده بين الشعراء خاصة مع سحر الطبيعة الخلابة التي كان دافعا أكبر للشاعر العربي من أجل ربط جمال المرأة بجمال الطبيعة، فكان الشعراء المسلمين هم من علموا احترام المرأة للرجل الإسباني ومنه إلى العالم الغربي أجمع، وقد أشارت هونكة في هذا السياق إلى قضية مهمة تميّز بها الشاعر العربي على الشاعر الأوروبي وهي قضية صدق العاطفة، حيث تقول: " على أنّ ما كان عند العرب حبّاً حقيقياً وشعوراً عميقاً أصيلاً قد أصبح في الغرب مجرد أسلوب الشعراء في أشعارهم لا ينبع عن إيمان عميق بما

¹² أرمسترونج، محمد صلى الله عليه وسلم نبي لزماننا، تر: فاتن الزلياني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة-

مصر، ط1، (1429هـ-2008م)، ص 55

¹³ عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية

السعودية، ط1، (1412هـ-1992م)، ص 437

يتغنون به"¹⁴، أي أن الشاعر في الغرب لا يستطيع نقل تلك العاطفة وذلك الإحساس بالحب عن صدق، لأنه غير متعود على مثل هذه الأغراض الشعرية ربما لسبب واحد وهو سهولة الوصول للمرأة دون أن يمنعه الدين ولا العادات والأعراف التي نجدها تقف حاجزا بالنسبة للشاعر العربي في ذلك الزمن .

خصصت المستشرقة هونكه في كتابها هذا مبحثا خاصا موسوما بـ " أصل سيدات الطبقة الراقية " تحدثت فيه عن طريقة تعامل الرجل الشرقي مع المرأة، وعاداته الجميلة في حسن معاملتها التي انعكست لاحقا على الرجل الغربي الذي كان قبل ذلك يعامل المرأة معاملة سيئة إن لم نقل متوحشة، فوقفت الألمانية هونكه عند بعض العادات التي يقوم بها الرجل الغربي اليوم لكنها كانت موجودة قبله بقرون تقول مثلا: " إن الحلي التي يقدمها الأوروبي لحبيبته أو لزوجة صديقه أو رئيسه، سواء أكانت ماسا أصليا أو زجاجا مصقولاً، هي عادة استوردت من الشرق ويمارسها الناس كل يوم ولا يعرفون لها مصدرا. وتمر السنون ، والحلي تلك مازالت تتنوع وتتغير ولكنها لم تفقد قوتها السحرية في جذب النساء حتى لو كنّا نعيش في القرن العشرين"¹⁵ فالمرأة في أوروبا لم تحظ بهذه المعاملة إلا في عصور متأخرة، ولم يُعترف بوجودها كإنسان إلا بعد مؤتمر فرنسا عام 1586م.

بل وجدت قوانين في إنجلترا تبيع للرجل بيع زوجته، تقول المستشرقة لورافيشيا فاغليري في هذا الصدد "إذا كانت المرأة قد بلغت، من وجهة النظر الاجتماعية في أوروبا، مكانة رفيعة، فإن مركزها شرعيا على الأقل، كان حتى سنوات قليلة جدا، ولا يزال في بعض البلدان، أقل استقلالا من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي"¹⁶ والسبب في كل هذا كان الكنيسة التي سلبت عقول البشر في ذلك الوقت. فكان أرباب الكنيسة يقولون بأن الرجل هو سيد المرأة تبعا لمشيئة الرب مثل تلك الأفكار التي تفسّدت في المجتمع الغربي أثّرت بشكل كبير في وصول المرأة لمكانتها الحقيقية المنشودة، وهي حالة تتأسف لها هونكه خصوصا وأنها

¹⁴ زغيريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب- أثر الحضارة العربية في أوروبا، تر: فاروق بيضون وآخرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط8، (1413هـ-1993م)، ص 524

¹⁵ المرجع السابق نفسه، ص 467

¹⁶ عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية

السعودية، ط1، (1412هـ-1992م)، ص 421

تنتمي لمجتمع ألماني لطالما اعتر بأفضليته عن بقية الأجناس وسمّوه عليها، فهي تنفي عن الرجل الغربي اختراعه لمجموعة من الصفات التي تحبها المرأة أن تتوفر فيه، حيث تقول أن " تزلف الرجل للمرأة وخطبه لودها وتقديسها، سواء أكان هذا من باب الأدب في المجتمعات، أو كان عن حب صادق، فإنه لا يتفق مع أصول الحب في المجتمع الجرمانى، الذي كان يرنو إلى مساواة تامة بين الرجل والمرأة مع اعتداد كل منهما بنفسه وشخصيته المستقلة، ومساواة في الحقوق والواجبات"¹⁷ ثم ذكرت مجموعة كبيرة من العادات التي أخذها الرجل الغربي من الرجل الشرقي، فهي غير أصيلة فيه ولا هو معتاد عليها بل انتقلت إليه من خلال الكتب ودواوين الشعراء المسلمين.

3/ تعقيبات المستشرقات عن بعض القضايا الأخرى

أشارت هونكه إلى قضايا أخرى رأت أنها دخيلة على المجتمع العربي في ذلك الزمن من بينها قضية الحجاب التي ترى أنها دخلت المجتمع العربي عن طريق النفوذ الفارسي، حيث تقول : " لقد هبّت على قصور العباسيين رياح جديدة قدمت من الشمال فغيرت الأوضاع، وقدم الحريم والحجاب مع الجاريات الفارسيات واليونانيات اللاتي كن محظيات للخلفاء وأمهات أولادهم"¹⁸ ثم ربطت كل هذا بحرية المرأة التي تراجعت شيئاً ما مقارنة بما كان سائداً قبل ذلك.

كما تنهت لقضية أخرى ترتبط بالنظام العمراني السائد آنذاك خاصة القصور التي ترى أنها أخذت طابعا فارسيا يعزل النساء عن العالم الخارجي، فأصبح حجب النساء كما تقول: "مظهرا من مظاهر الأبهة والثراء. وهكذا كُتب على النساء أن يبقين سجينات منازلهن باسم الدين"¹⁹، من هذا المنطلق حاولت هونكه إعطاء مقارنة بسيطة بين المرأة البدوية، والمرأة الحضرية وهي ترى باستقلالية الأولى على الثانية لأنها ترى أن الاندماج الثقافي بين العرب والفرس تحديداً أثر سلباً من هذه الناحية، لكن هذه الظاهرة أخذت في الزوال شيئاً

¹⁷ زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب- أثر الحضارة العربية في أوروبا، تر: فاروق بيضون وآخرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط8، (1413هـ-1993م)، ص 467، 468

¹⁸ المرجع السابق نفسه، ص 470

¹⁹ زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب- أثر الحضارة العربية في أوروبا، تر: فاروق بيضون وآخرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط8، (1413هـ-1993م)، ص 471

فشيئا بمجرد احتكاك العرب بالعنصر الأوروبي في العصر الأندلسي، "وهكذا بقيت المرأة العربية كما كانت في الجاهلية وصدر الإسلام معتدة بنفسها وكرامتها طالما هي بعيدة عن تيارات المدينة. وبقيت البدوية في القرون الإسلامية الأولى أكثر حرية وكرامة من سيدات الطبقة الراقية في قصور دمشق"²⁰، في الأخير تذكر لنا المستشرقة هونكه قصة جميلة حدثت بين معاوية وزوجته ميسون حينما سمع صوتا حزينا قادما من مخدع زوجته ميسون تردد الأبيات الآتية:

"وَلُبْسَ عِبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي *** أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ
وَأَكْلَ كَسِيرَةٍ فِي حِجْرِ بَيْتِي *** أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرَّغِيفِ
وَحَرْقٍ مِنْ بَنِي عَمِّي ضَعِيفٍ *** أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَجَلٍ عَنِيفٍ
وَبَيْتٌ تَخْفِقُ الْأَزْوَاحُ فِيهِ *** أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيفٍ

فما كان من معاوية إلا أن أخلى سبيلها، وأعطت ابنة الصحراء للبريق والحريظها غير نادمة، وأسرعت لموطنها حيث للمرأة مكانتها واحترامها.²¹ فالمرأة العربية في بداوتها تعودت القيام ببعض النشاطات اليومية التي تجعلها أكثر سعادة وأكثر نشاطا وحيوية، وهو ما لم يتوافر في المدن والحوضر التي همشت دور المرأة في المجتمع وانحصر دورها في الأعمال المنزلية دون مشاركة فعالة منها في بقية النشاطات الأخرى، "و الحقيقة أن تقوقع المرأة يقتصر على الطبقات المتوسطة في المدن، أما في المناطق الريفية فتلعب المرأة دورا هاما حيث عليها التواجد في الحقول والقيام بالأعمال الزراعية أيضا"²².

²⁰ المرجع نفسه، ص 472

²¹ زغيريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب- أثر الحضارة العربية في أوروبا، تر: فاروق بيضون وآخرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط8، (1413هـ-1993م)، ص 472، 473

²² أنا ماري شيمل، الإسلام دين الإنسانية، تر: محمود حمدي زقزوق، المجلة الإسلامية، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، (1438هـ-2017م)، ص 79

كانت هذه النقاط التي تحدثت عنها الباحثة في كتابها هذا لتحاول نفي جميع التهم التي ألصقت عن مكانة المرأة في الإسلام، فعالجت القضية من زوايا متعددة وبروح علمية موضوعية وهو ما يحسب لها.

الخاتمة: في نهاية هذه الورقة البحثية كان لا بد أن نصل إلى مجموعة من النتائج لعل أهمها:

- ❖ إن المستشرقة زيفريد هونكه التي عرفت بصداقتها وحما للعرب عبر مسيرتها العلمية الحافلة، قد أثمر لنا مجموعة كبيرة من الكتب القيّمة التي عالجت مجموعة من قضايا التراث العربي القديم، بنظرة عادلة متجردة من جميع الأهواء والنوازع الشخصية التي عادة ما تحول بين الباحث وبحثه.
- ❖ الاستشراق الألماني تمتد جذوره داخل الثقافة العربية منذ القدم، والمميز فيه أنّه جاء في صورة أقل ما نقول عنها أنّها صورة حسنة لا تحمل بين طيّاتها بذور الحقد وحب السيطرة والتملك التي وجدت في الاستشراق الفرنسي والبريطاني.
- ❖ صورة المرأة الشرقية أخذت في التحسن بظهور الإسلام رغم محاولات تشويه صورته من قبل كثير من الباحثين الغربيين والعرب على حد سواء، لكن الرد جاء من مستشرقات حاولن التماس الحقيقة وأعطين صورة مشرقة للمرأة الشرقية.
- ❖ رغم تراجع مكانة المرأة في العصر العباسي خاصة مع التغيرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الإسلامي، بالأخص مع دخول العنصر الأجنبي المتمثل في الفرس واليونان ودخول عادات جديدة حسب هونكه إلا أنه سرعان ما تغيّر الوضع مع امتداد الرقعة الإسلامية التي وصلت حتى بلاد الأندلس، أين استرجعت المرأة دورها المحوري في المجتمع واندمجت في شتى المجالات الاجتماعية والثقافية وأسهمت في بناء صرح الحضارة العربية..

قائمة المصادر والمراجع:

أ/ المصادر:

القرآن الكريم

سورة التكويز: برواية حفص عن عاصم

سورة النحل: برواية حفص عن عاصم

ب/ المراجع:

1. زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، تر: غريب محمد غريب، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط1، (1416هـ-1995م).
2. زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب- أثر الحضارة العربية في أوروبا، تر: فاروق بيضون وآخرون، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط8، (1413هـ-1993م).
3. زيجريد هونكه، الإبل على بلاط قيصر، تر: حسام الشبيبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، (1421هـ-2001م).
4. زيجريد هونكه، العقيدة والعلم- وحدة الدين الأوروبي وعلم الطبيعة، تر: محمد أبو حطب خالد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة- مصر، ط1، 2007.
5. محمد فاروق النيهان، الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية، ايسيسكو، (د.ط)، (1433هـ-2012م).
6. آنا ماري شيميل، روجي أنثى، تر: لميس فايد، الكتب خان للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط1، 2016.
7. أرمسترونج، محمد صلى الله عليه وسلم نبي لزماننا، تر: فاتن الزلباني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة- مصر، ط1، (1429هـ-2008م).
8. عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (1412هـ-1992م).

9. أنا ماري شيمل، الإسلام دين الإنسانية، تر: محمود حمدي زقزوق، المجلة الإسلامية، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، (1438هـ-2017م).

